

بيروت .. التي كانت كل لبنان

كان يقال إن لبنان كله بيروت ، إن بيروت هي كل لبنان .
كان يقال ذلك ليس على سبيل الغزل بلؤلؤة البحر المتوسط وإنما على سبيل
التنديد بلبنان .

عندما كان أحدنا يتغنى بانفتاح لبنان وحرياته ، بمستوى معيشته وثقافته ،
بنشاطه التجاري والمالي والمصرفي ، بمعدل نموه الاقتصادي ، بموقعه على ملتقى
طرق الشرق والغرب بحراً وجواً ، بجبال طبيعته وصخب حياته . . . عندما كان
أحدنا يتحدث ، بلسان يلهج بالثناء ، عن لبنان مركزاً للخدمات في المشرق
العربي ، عن مصارفه وجامعاته ومستشفياته ومدارسه ، عن شبكة مواصلاته ،
عن طرقة ومرفئه ومطاره ، عن صحافته وأدبه وفنه . . . عندما كان أحدنا يفعل
ذلك لم يكن يقصد لبنان وإنما كان يقصد عاصمته .
وما الفرق ؟

كان لبنان كله بيروت . . . كانت بيروت كل لبنان .

كل ما كان يقال عن لبنان كان يتركز في بيروت ويتمحور حولها . بيروت
تلك ، التي كان حجمها من حجم لبنان ، كانت لها حدود جغرافية أوسع من
حدودها البلدية . . وكانت كنيثتها عند البعض بيروت الكبرى .

* مقال منشور في مجلة « الاقتصاد والأعمال » .

وحتى المساحات المحيطة ببيروت الكبرى كانت تعرف بها . فالتلال
الخضراء الجميلة التي تحيط بها هي مشارف بيروت ، واعالي تلك التلال هي
جبالها .

بيروت تلك كانت ضعف لبنان بقدر ما كانت هي كل لبنان وقوته . فهي
لم تترك لسائر لبنان شيئاً مما كان لها ، أو كادت . فيها الازدهار والرخاء
والرواج ، وفي الجنوب والبقاع وعكار تخلف وفاقة وحرمان . فيها الثروة
والنعمة والألق وفي قرى الجبال كدّ وكدح ولقمة عيش مغموسة بعرق الجبين .
فيها الثقافة والعلم والأدب والفن ، وفي الريف البعيد قحط ، وإذا ما حباه الله
من اهل تلك الحقول يوماً نوابغ ، وقد فعل بسخاء ، ابتلعتهم تلك المدينة
النهمة .

وحتى الفقر والحرمان والجهل لم تترك بيروت ، في كبرياتها ، لسائر لبنان
فضل الاستئثار بها . فكان حزام البؤس حول العاصمة يتحدى المناطق بما لها وما
عليها وأكثر .

كانت بيروت تتباهى بجاه لبنان كله ، برفعة لبنان كله ، ببناء لبنان كله ،
فوجد الاقتصاديون في ذلك ضعف لبنان . رأوا في تميّز بيروت ما يشبه الورم في
الجسم اللبناني السقيم . فلا غرو أن قالوا ان إثمنا لبنان يعني إثمنا المناطق ، يعني
إثمنا الزراعة في الريف النائي والصناعة بعيداً عن المدن ، يعني تطوير البنى
الأساسية في زوايا لبنان الأربع وتحديث مرافق الخدمات العامة وتعزيز حضور
ادارات الدولة فيها .

كانت بيروت كل ذلك ، فأين غدت اليوم ؟

الأزمة المجنونة التي اجتاحت لبنان طحنت بيروت .

سنوات الأزمة التي عبرت بطيئة ثقيلة طويلة كانت تأكل من بيروت كلما
اكلت من لبنان . كانت تقعات من عافية بيروت ورونقها وحتى من جسمها فيما
كانت تستنزف دم لبنان . ولا عجب ، أو ليست بيروت كل لبنان ؟ أو ليس لبنان
كله بيروت ؟

كنا نخشى ، ولا نخفي خشيتنا ، من ان يكون هدف المؤامرة ان يصغر لبنان لتكبر بيروت . . . أي ان يُفْتَت لبنان ، فُتُتْ اطرافه وتقضم جوانبه فلا يبقى من الوطن المصاب الا بيروت الكبرى ، وربما مشارفها . فاذا بيروت ذاتها تتقلص وتصغر وتنكمش .

اكتب هذه السطور على هزيم المدافع وأزيز الرصاص فوق بيروت وحواليها ، وقد اقتطعت خطوط القتال المتجددة نصف المدينة عنها وأحرق القصف الشرعي ضاحتها المحرومة وبدأت نار الشرعية تلتهم احياء سكنية مكتظة وسط العاصمة فيما القصف العشوائي لا يميّز بين آمن وآمن ، بين شيخ وطفل ، لا في شرقية ولا في غربية ، لا في بلدة ساحلية ولا في قرية جبلية .

وعلى قمم الجبال الشاخمة وشم حزين ، نقشته فذائف الاسطول الاميركي الجبّار للذكرى . . . اجل للذكرى تخليداً لما قام به من دور في نشر السلام في لبنان . أو ليس هذا ما جاء من أجله ؟

تقلصت بيروت وصغرت وانكمشت ، وسُدّت عليها المنافذ .

اكتب هذه السطور ومرقاً بيروت الصاحب مقفل ، ومطار بيروت العامر معطل ، وطريق الجنوب مقطوعة ، ومسالك الجبل وعرة خطرة ، وطريق الشمال تقف وسط بيروت عند نقطة المتحف .

ويكاد ينحسر في نصف بيروت كل لبنان بعد أن غصت بألوف المهجرّين من الجنوب ، من الجبل ، من الضاحية الجنوبية ، ومن المناطق الأهلة على خطوط التماس في العاصمة .

إنها ساعة الحقيقة ، يشعر فيها المرء وكأنه أمام قدر محتوم .

سليم الحص

بيروت في ٢٩/٢/١٩٨٤